خاتمة الكتاب

رحلة إلى عالم جديد

فوق الوادي، فإن الألوان الأخيرة لهذا النهار تدفئ الأفق. إن بعدين اثنين يتقدمان على الأرض، ويزيلان كل الخطوط المحيطية، ويصقلان الجبال الأرجوانية لتصبح مستوية مقابل السماء المتألقة الوردية. كلما كانت القوى المدمرة الطبيعية ناشطة في أي مكان في آسيا، فإن السماوات تضيء. عند كل شفق فإن الغبار الزائر يضيء محمراً في الجو، مقوياً ألوان السماء القوية دائماً. لقد جلست أسبح في ضوء غريب مثبتة إلى الجبال الجذابة الداكنة.

إنني أتحرك على نحو مختلف في العالم في هذه الأيام منذ أن تنقلت في حقول العلم الحديث. لقد أصبح العالم موضعاً محيراً وغريباً يستمر في الإلحاح بإصرار على أن أتخلى عن ما أعتقد أني أعلم. لكنني وجدت الحياة مشوقة أكثر بكثير الآن. وأنا أحيا مع اللامعرفة، وأحاول أن أبقى فضولية، مفضلة ذلك على أن أكون واثقة. في عملية كتابة هذا الكتاب والتفكير بقليل من الجد بأفكاره طوال عدد من السنوات، ثم تنقيحه بالاستناد إلى ما قد رأيت، فإن بضعة أشياء بشأن الرحلة برزت.

لقد بقيت في هذا العمل لبضع سنوات قبل أن أصبح قادرة على تعيين هوية طبيعته الحقيقية. لقد أدركت أنني أنا والآخرون لم نكن نطلب من الناس أن يتبنوا ببساطة بعض المقاربات الجديدة نحو القيادة أو أن يفكروا بشأن النظم في

طرق جديدة قليلة. ما كنا نطلبه في الواقع وما كان يُطلَب منا أيضاً، كان تغيير تفكيرنا عند المستوى الأساسي إلى أبعد حد، مستوى رؤيتنا للعالم. إن رؤية العالم المسيطرة في الثقافة الغربية - رؤية العالم كآلة - لا تساعدنا على أن نحيا بسهولة في هذا العالم لأي فترة أطول. يجب علينا أن نرى العالم بشكل مختلف، لنحيا فيه منسجمين أكثر.

عندما فهمت طبيعة العمل فإن هذا ساعدني على أن أسترخي وأن أصبح سخية أكثر. لقد اكتشفت أن الناس يصبحون مرتعبين إذا طُلِب منهم أن يغيروا رؤيتهم للعالم.

من غير ريب سيصبح الناس في وضع دفاعي ومن غير ريب يمكن لفكرة جديدة أن تثير اهتمام الناس، لكنهم بعدئذ يرفضون قبولها في خوف. إنهم أذكياء إلى حد كاف ليدركوا إلى أي مدى سيكون عليهم أن يتغيروا إذا قبلوا تلك الفكرة. لم أعد لفترة أطول قلقة من أنني إذا تمكنت مباشرة من أن أجد التقنيات أو الكلمات الملائمة فإنني سأتمكن فوراً من إقناع الناس. لم أعد أترقب لفترة أطول أن يتم تبني رؤية جديدة للعالم بسرعة. إنني لا أعرف إذا كنت سأراها تترسخ في فترة حياتي. إنني أعرف أيضاً أن الناس يتم التأثير فيهم من مصادر وراء نطاق سيطرة أي شخص بكثير. إنني أعرف أشخاصاً كثيرين تغيروا بوساطة أحداث في حياتهم وليس بوساطة كلمات يقرؤونها في كتاب ما.

هؤلاء الأشخاص تغيروا بوساطة قوة الحياة الإبداعية العظيمة، الفوضى. أحد الهبات التي تقدمها رؤية العالم الجديدة هذه هي تصوير أوضح لطبيعة الحياة الدورية. إن رؤية العالم الميكانيكية وعدتنا بأن نحيا في تقدم مستمر. منذ أن أصبحنا في تحكمها وتوجيهها جميعاً، فإننا تمكنا من سَحب أنفسنا في خط مستقيم صاعد، ونحن نمشي مضطربين بصعوبة. لكن الحياة لا تعمل بتلك الطريقة ورؤية العالم الجديدة هذه تؤكد ما عرفه معظمنا - أن لا ولادة جديدة ممكنة من دون التحرك عبر ممر مظلم. إن الأوقات المظلمة طبيعية بالنسبة للحياة، لا شيء خاطئاً معنا عندما ندخل فجأة في اللاتكوّن على نحو دوري.

في أثناء السنوات السابقة، والعلم يكِزني، بدأت أعرف شخصياً أن الرحلة إلى الجدة ممتلئة بأخاديد الفوضى المظلمة. لقد قيدني العلم عن أن أحاول التغلب على عقبات طريقي في الأوقات المظلمة بإصلاح سريع. لكن حتى ولو أنني أعرف دور الفوضى فإنني لا أزال لا أميل إليه. إنه لمروِّع عندما العالم الذي جعلته يتماسك بعناية جداً يبدأ بالتلاشي. إنني لا أحب الإحساس بأنني خاسرة ومفرغة من المعنى. إنني سأفضل طريقاً أسهل نحو التحول. لكن حتى عندما ألاقي أن مطالبها غير معقولة، فإنني أعلم أنني في مشاركة مع قوى إبداعية عظيمة. إنني أعلم أن الفوضى هو مكان ضروري بالنسبة لي أن أقيم فيه أحياناً. وهكذا تعلمت أن أجلس مع هذه اللحظات المظلمة - مرتبكة ومقهورة، وأثق فقط بتردد بأن تبصّراً جديداً سوف يظهر. إنني أعلم أن هذا هو طريقي الوحيد إلى نواحٍ جديدة في الوجود.

كلما فكرت أكثر في هذه الأوقات، عندما أضع رؤية جديدة حقاً للعالم، أدركت أكثر أن ثقافتنا تقوم الآن برحلة عبر الفوضى. إن الأساليب القديمة تتبدد والجديدة لم تظهر نفسها بعد. إذا كان هذا صحيحاً إذن يجب أن نشارك مع بعضنا البعض على نحو مختلف كرواد ومستكشفين. إنني أعتقد أنه سيجعل الممر مثمراً أكثر إذا استطعنا أن نتعلم أن نجل بعضنا البعض في هذه الأدوار. نستطيع أن ندرك أن أي شخص وحيد وأي مدرسة فكرية وحيدة لا يمتلكان الجواب لأن ما هو مطلوب هو كثير وراء نطاق الأجوبة المعزولة. نستطيع أن ندرك أننا يجب أن نبحث معاً لنكتشف الجديد. نستطيع أن يلتفت بعضنا إلى بعض كأملنا الأفضل من أجل اختراع واكتشاف العوالم التي نبحث عنها.

في الماضي كان الاستكشاف أسهل. كان بإمكاننا أن نعمل كأنصار وأن نستخدم شخصاً ما مقابل المال ليقوم بذلك من أجلنا. إنه سوف يبحر ويعيد لنا الأجوبة والثروات التي اشتهيناها. إننا لا نزال نرغب في أن نعمل بهذه الطريقة. لا نزال نعتمد على الاستيلاء على ما اكتشفه الآخرون، وتبنيه

كخاصتنا. لكننا جميعاً تعلمنا من التجربة أن الحلول لا تنتقل. هذه الإخفاقات تفسرها الفيزياء الكمومية. في العالم الكمومي، فإن كل شيء يعتمد على المحيط، على العلاقات الفريدة الموجودة في اللحظة. نظراً لأن العلاقات تكون مختلفة من مكان إلى مكان ومن لحظة إلى لحظة، لماذا سنرتقب أن الحلول التي طُورت في محيط أول ستعمل بالطريقة نفسها في آخر؟

وهكذا لم يعد بإمكاننا لفترة أطول أن ننتظر مترقبين من أجل الحل الملائم. إن كل واحد منّا مطلوب منه أن ينزل إلى حوض السفينة وأن يبدأ رحلاته المستقلة. من الضروري أن تكتظ البحار بالمستكشفين، كل منّا يبحث عن أجوبتنا. من الضروري أن نشترك فيما نكتشف، لكن ليس كنماذج. من الضروري أن نتعلم من بعضنا البعض ما هو ممكن. إن نجاح الآخر يشجعنا على أن نواصل بحثنا الخاص من أجل الثروة.

هذه الضرورة لأن نكتشف لأنفسنا هي أكيدة. إنني أحتفظ بأمل أن أكون على خطأ وأن شخصاً ما في مكان ما يمتلك الإجابة حقاً. لكنني أعرف أنني لا أقيم في كون ذاك لأي فترة أطول. في هذا العالم الجديد، أنت وأنا يجب علينا أن نتم ذلك عندما نتعاون، ليس لأننا نفتقر إلى الخبرة أو إلى مهارات التخطيط، لكن لأن ذلك هو طبيعة الحقيقة. إن الحقيقة يتغير شكلها ومعناها عندما نوجد فيها. إنها جديدة باستمرار. يطلب منا أن نوجد هناك، كمشاركين فعالين... إنها لا يمكن أن تظهر من دوننا، وإن أي شخص لا يمكنه القيام بذلك من أجلنا.

إذا اضطلعنا جدياً بدور المستكشف والمخترع، فإننا سوف ندرك أنه لا يمكننا القيام بهذا وحيدين. إنه عمل مروِّع، أن نحاول اكتشاف عالم جديد، آملين أن لا نموت في العملية، إننا نحيا في زمن الفوضى زمناً غنياً باحتمال الكارثة مثل غناه باحتمال الإمكانيات الجديدة. كيف سنجتاز هذه الأزمنة؟

الجواب هو معاً. إننا نحتاج بعضنا البعض على نحو مختلف في الوقت الحاضر. لا نستطيع الاحتجاب وراء حدودنا، أو أن نستمر في الاعتقاد بأننا

نستطيع أن نبقى على قيد الحياة من دون غيرنا. نحتاج بعضنا البعض لاختبار أفكارنا، لنتقاسم ما نتعلمه، لنساعد أنفسنا على الرؤية في طريق جديدة، لنصغِ إلى قصصنا. نحتاج إلى بعضنا البعض لنصفح عن أنفسنا عندما نخفق، لنأتمن أنفسنا على أحلام الآخرين، ليقدموا أملهم عندما نكون قد فقدنا أملنا الخاص.

إنني أحتاج حاجة ماسة إلى رفاق ليس إلى منافسين. إنني أحتاج إلى أشخاص يبدؤوا الرحلة معي خلال هذا العالم المحير والمرعب. إنني أتوقع أن أخفق عند مراحل من هذه الرحلة، وأن أصبح ضالة - كيف يمكن ألا يكون ذلك؟ وإنني أتوقع أنك أنت أيضاً سوف تخفق.

حتى خاتمة رحلتنا هي دورية - لا نستطيع أن نحول دون أن نتحرك من القديم إلى الجديد إلى القديم. إننا سوف نتذبذب، في أول يوم ننجز شيئاً ما مختلفاً وجريئاً، يثيرنا تقدمنا. وفي اليوم التالي نرجع إلى الوراء إلى التصرفات القديمة مرتبكين بشأن كيف نتقدم. من الضروري أن نتوقع أننا سوف نتيه بعيداً عن الطريق وأننا لن نصنع تقدماً مباشراً إلى غايتنا. لنثبت على الطريق نحتاج لصبر ولشفقة ولمغفرة. يجب أن نطلب هذا من بعضنا البعض. إنه سيساعدنا على أن نكون مستكشفين أكثر جرأة، إنه يمكن أن يحمينا من أن نصاب بالجنون.

هذا عالم غريب وأنه يعد فقط بأن يصبح أكثر غرابة. نيلز بور الذي شارك مع هايزنبرغ في تلك المحادثات الليلية الطويلة التي انتهت باليأس قال ذات مرة أن الأفكار العظيمة، عندما تظهر، فإنها تبدو مشوشة وغريبة. إنها فقط تفهم جزئياً من قبل مكتشفها وتبقى لغزاً بالنسبة لكل شخص آخر. لكن إذا لم تبدُ فكرة ما غريبة، فإنه لا يوجد أمل فيما يتعلق بها (*Wilber*، 1985، 20).

هكذا يجب أن نحيا مع ما هو غريب وشاذ، متوجهين إلى الأرض غير المرئية بوميض متردد من الأمل. إن كل لحظة من هذه الرحلة تتطلب أن نكون نحن مشجعين للشك ومقدرين دور الفوضى حق قدره. كل لحظة تتطلب أن نبقى

معاً. بعد أن يقال وينجز الكل، فإننا نمتلك هبة بعضنا البعض. إننا نمتلك فضولاً ومعرفة وشجاعة بعضنا البعض. وإننا نمتلك الحياة التي قدراتها العظيمة على التنظيم، إذا قررنا أن نعمل بها ستجعلنا أيضاً شجعان وواعين وفضوليين بدرجة أكبر.